جبران خليل جبران

آلهة الأرض و السابق

المكتبة الثقافية

Bibliotheca Alexandrina
0201871

آلهة الأرض

و

السابق

تأليف

جبران خليل جبران

عربه

الارشمندريت انطونيوس بشير

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان

فهرست

	الصفحة
آلهة الأرض	٣
السابق	٣٥
أنت سابق نفسك	٣٧
البهلول	٣٩
المحبة	٤٣
الملك الناسك	٤٤
بنت الأسد	٤٨
الظلم مرتعه وخيم	٥١
القديس	٥٢
الطمع	٥٤
الذات العظمى	٥٥
الحرب والأمم الصغيرة	٥٧
الناقدون	٥٨
الشعراء	٦٠
دوارة الريح	٦٢
ملك أردوسة	٦٣
طائر ايماني	٦٤
الخلافات	٦٦
المعرفة ونصف المعرفة	٦٩
الصحيفة البيضاء	٧١
العالم والشاعر	٧٢
الأثمان	٧٥
البحار الأخرى	٧٦
التوبة	٧٦
المحتضر والشوحة	٧٧
وراء وحدتي	٧٩
اليقظة الأخيرة	٨١

وعندما حلت ليلة العصر الثاني عشر ،
وابتلع الصمت ، الذي هو مدُّ بحر الليل ، جميع التلال ،
ظهر الآلهة الثلاثـــة ، المولودون في الارض ، وأسياد الحياة ، على الجبال .
فتراكضت الأنهار إلى أقدامهم ،
وغمرت أمواج الضباب صدورهم ،
وارتفعت رؤوسهم بجلال فوق العالم .
ثم تكلموا فتموّجت أصواتهم ، كالرعد البعيـــد فوق السهول .

الاله الأول

ان الريح تهب شرقاً ،
فأريد أن أحوّل وجهي نحو الجنوب ،
لأن الريح تملأ مشامتيّ برائحة الأشياء الميتة .

الاله الثاني

هذه رائحة الأجسام المحترقة ، وهي لذيذة وسخية ، وأنا أود أن أتنشقها .

الاله الاول

هي رائحة الميتوتة المحترقة على لهيبها الضئيل .
وهي تملأ دقائق الهواء بوفرة ،
فتزعج حواسي كما يزعجها الهواء الفاسد في الهاوية .
ولذلك أريد أن أحول وجهي الى الشمال الذي لا رائحة فيه .

الاله الثاني

انها العبير الملتهب للحياة المثمرة ،
وهي ما أود أن أتنشقه الآن وفي كل أوان .
إنما تعيش الآلهة على التضحية،
وتبرّد غلة عطشها بالدم ،
وتسكّن قلوبها بالنفوس الفتية ،
وتشدد عزائمها بالتأوهات الدائمة التي تصعّدها أرواح القاطنين في قلب الموت ،
وعروشها مبنية على رماد الأجيال .

الاله الاول

قد سئمت روحي كل ما هو كائن .
فأنا لن أمد يداً لأخلق عالماً ،
ولا لأمحو عالماً من الوجود،

انني ما كنت لأعيش لو أنني قادر أن أموت ،
لأن ثقل الأعصر كلها على كتفي .
وهدير البحر الذي لا ينقطع يستنفذ كنوز نومي .
فيا ليت لي أن أخسر المطلب الأول ،
فأزول كالشمس الزائلة .
أود لو أستطيع ان أجرد ألوهيتي من غايتها
لأنفخ أنفاس ميوتتي في الفضاء ،
فلا أكون فيما بعد .
يا ليت لي أن أحترق وامضي من ذاكرة الزمان ،
الى فراغ الأزمان ؟

الاله الثالث

أصغيا يا أخوي ، أصغيا أيها الشقيقان القديمان .
فان شاباً في ذلك الوادي
ينشد مكنونات قلبه في أذن الليل .
ان قيثارته من الذهب والأبنوس ،
وصوته من الفضة والذهب .

الاله الثاني

انني لست مغروراً بهذا المقدار لأتمنى أن لا أكون . فأنا لا أقدر أن أختار إلا أصعب الطرق ،

لأتتبع الفصول واعضد شوكة السنين ،
لأزرع البذور وأراقبها تنفذ الى قلب الأرض ،
لأدعو الزهرة من مخبئها وأسلحها بقوة لتحضن حياتها ،
ثم أعود فأقلعها عندما تضحك العاصفة في الغابة ، لأنهض الانسان من الظلمة السّريّة ،
ولكنني أحفظ لجذوره حنينها إلى الأرض ،
لأغرس فيه العطش للحياة ، واجعل الموت حامل أقداحه ،
لأعطيه المحبة النامية بالألم ، المتسامية بالشوق ، المتزايدة بالحنين ، والمضمحلة بالعناق الأول .
لأمنطق لياليه بأحلام الأيام العلوية ،
وأسكب في أيامه رؤى الليالي المقدسة ،
ثم أحكم على أيامه ولياليه بالمماثلة التي لا تتغير ،
لأجعل خياله كالنسر على الجبل ،
وأفكاره كعواصف البحار ،
ثم أعطيه يداً بطيئة في الحكم ،
وقدماً ثقيلة في التأمل ،
لأمنحه مسرة ليترنم أمامنا ،
وكآبة ليلتجىء الينا .
ثم أجعله وضيعاً عندما تصرخ الأرض في مجاعتها طالبة طعاماً ،
لأرفع نفسه عالية فوق الجلد

ليصير قادراً على مذاقة غدنا ،
واحفظ جسده يتمرغ بالحمأة
لكي لا يتناسى ذكر أمسه ،
هكذا يليق بنا أن نحكم الانسان إلى منتهى الزمان ،
مقيدين النسمة التي تبدأ بصراخ أمه ،
وتنتهي بنواح أولاده .

الاله الأول

ان قلبي يحترق عطشاً ، بيد انني لا اريد ان اشرب دماً ضعيفاً لجنس ضعيف ،

لان الكأس ملطخة ،والعصير الذي فيها مر المذاق في فمي.

وانا مثلك قد عجنت الطين وصنعت منه أشكالاً متنفسة لم تلبث ان سقطت من بين اصابعي إلى الآجام والتلال .

وانا مثلك قد أنرت الأعماق المظلمة لبداءة الحياة ،
وراقبتها تزحف من الكهوف إلى الأعالي الصخرية .
انا مثلك قد احضرت الربيع ووضعت جماله ،
ليكون غواية تقبض على الشباب وترغمه على الانتاج والتكاثر .

انا مثلك قد سرت بالانسان من مزار الى مزار ،
وحولت مخاوفه الصماء من الغير المنظورات إلى إيمان مضطرب بنا من غير ان يرانا او يعرفنا .

انا مثلك قد جعلت العاصفة الهوجاء على رأسه ، لينحني أمامنا .
وزعزعت الأرض تحت قدميه حتى يصرخ الينا ، ·
ومثلك، اثرت الاوقيانوس البربري فطغا على عش جزيرته ،
حتى مات في توسله الينا .
كل هذا فعلته ، واكثر منه .
وكل ما فعلته فارغ باطل .
باطلة هي اليقظة وفارغ هو النوم .
وثلاث مرات باطل وفارغ هو الحلم .

الاله الثالث

يا اخوي ، ان غابة الريحان تلك فتاة ترقص للقمر ،
وفي شعرها الف نجمة من الندى ،
وحول قدميها الف جناح .

الاله الثاني

اننا قد غرسنا الانسان ، كرمتنا .
وفلحنا الأرض في الضباب الأرجواني للفجر الأول.
وراقبنا الأغصان النحيلة نامية ،
وغذينا الأوراق الفتية على ممر الأيام والسنين التي لم تعرف الفصول .

وحصنا البراعم ضد العناصر الغضوبة ،
وحرسنا الزهرة من اعتداء الأرواح المظلمة .
والآن ، وقد أخرجت كرمتنا عنبها ،
فأنتم لا تحملونه إلى المعصرة لتملأوا الأقداح .
فأية أيدٍ أقدر من أيديكم ستجمع الثمر ؟
وأي مطلب انبل من عطشكم ينتظر الخمرة ؟
فالانسان طعام للآلهة .

ومجد الانسان يبتدىء عندما تمتص شفـــاه الآلهة المقدسة نسمته الهائمة على غير هدى .

كل ما هو بشري لا قيمة له إذا ظل بشرياً ،
إن طهارة الأطفال ، ووجد الشباب اللذيذ ،
وهوى الرجولة العزومة ، وحكمة الشيخوخة الناضجة ،
إن مجد الملوك ، ونصر المحاربين ،
وشهوة الشعراء ، وشرف الحاكمين والقديسين ،

كل هذه وكل ما تحمله في ثناياها ، هو خبز الآلهة وهي لن تكون إلا خبزاً بغير بركة ، اذا لم ترفعها الآلهة الى أفواهها .

وكما أن حبة الحنطة الصماء تتحول الى انشودة محبة عندما يبتلعها البلبل ،

هكذا الانسان إذا كان خبزاً للآلهة يتذوق الالوهية ،

الاله الأول

نعم ، ان الانسان هو خبز الآلهة !

وكل ما هو من الانسان سيأتي إلى مائدة الآلهة الخالدة !

آلام الحمل ، وعذاب الولادة ،

صراخ الاطفال الذي يشق كبد الليل ،

وغم المرأة وهي تصارع النوم الذي تتوق اليه لتسكب الحياة الذاوية من ثدييها ،

الأنفاس الملتهبة الخارجة من صدور الشباب المتقطعة ،

والعبرات المثقلة بأحمال الأهواء التي لا تفتح خزائنها بعد .

جباه الرجولة القاطرة عرقاً وهي تحرق الأرض الجدباء ،

وتحسرات الشيخوخة الذابلة ، عندما تدعو الحياة ــ ضدإرادة الحياة ــ إلى القبر .

تأملوا هذا هو الانسان !

مخلوق يلده الجوع فيصير طعاماً للآلهة الجائعة ،

وكرمة تدب في تراب الأرض تحت أقدام الموت الذي لا يموت .

زهرة تزهر في ليالي الأشباح الشريرة ،

وعنب لا ينضج إلا في أيام الدموع والرعب والعار .

وأنتم على رغم هذا كله تطلبون الي أن آكل وأشرب ،

وترغبون إليّ أن أجلس بين الوجوه المكفنة ،

واستقي حياتي من الشفاه الصخرية ،
واقتبل خلودي من الأيدي اليابسة !

الاله الثالث

يا أخوي ، ايها الاخوان الراعبان
إن الشباب يغني في أعماق الوادي ،
ولكنّ انشودته تتصاعد إلى أعالي الجبال .
وهو يهز الغابة بصوته ، ويشق كبد السماء
ويبدد أحلام الأرض

الاله الثاني

(يصم اذنيه دائماً)
ان النحلة تطن بغلاظة في اذنيك ،
والعسل مر المذاق في فمك .
انني أود ان اعزيك ،
ولكن أنـّى السبيل إلى ذلك ؟
فليس يصغي غير الهاوية عندما تخاطب الآلهة الآلهة ،
لأن الهوّة الفاصلة بين الآلهة لا تحد ولا تقاس ،
والفضاء صامت لا ريح فيه .
ومع كل هذا اريد ان اعزيك ،
أريد أن أجعـــل دائرتك المتلبدة بالغيوم نقية صافية ،
ومع اننا متساويان بالقوة والفهم ،

فانني اريد ان أخلص لك النصح .

عندما خرجت الأرض من الفضاء ، ورأينا نحن ، ابناء البدء ، احدنا الآخر في النور الذي لا عيب فيه ، حينئذ أصعدنا الصوت الخفـــي ، المرتعش ، الأول ، الذي أنعش مجاري الهواء والماء .

ثم مشينا جنباً إلى جنب ، على سطح العالم الفتي الشيخ ، ومن صدى خطواتنا البطيئة ولد الزمـــان ، الهاً رابعاً ، فاقتفى اثار خطواتنا ، واظلم بخياله أفكارنا ورغباتنا ولم يرَ الا بنور عيوننا .

ثم جاءت الحياة إلى الأرض ، وجاءت الروح إلى الحياة ، وكانت الروح نغماً مجنّحاً في الوجود ، فحكمنا على الحياة والروح ، ولم يقدر أحد غيرنا على معرفة مقاييس السنين ، وموازين الأحلام السديمية في الأعوام ،حتى جاء العصر السابع فزَففنْا في مدّ ظهيرته البحر عروساً للشمس .

ومن مضجع هذا الزواج المقدس اخرجنا الانسان ، الذي على رغم ضعفه وسقمه ، ما برح يحمل شارة والديه .

وبواسطة الإنسان ، الذي يمشي على الأرض وعينـــاه في النجوم ، قـد وجدنا طرقاً نافذةً إلى أبعد الأصقاع النائية في الأرض ، ومن الانسان ، وهو القصبة الوضيعة النامية على المياه المظلمة ، قد صنعنا مزماراً نسكب من قلبه الفارغ صوتنا الى العالم الصامت في جميع ارجـائه . ومن الشمال الذي لا شمس

فيه ، إلى رمال الجنوب المحترقة بالشمس ، ومن ارض عرائس النيل حيث تولد الأيام ،

إلى جزائر الأخطار حيث تذبح الأيام ،

ترى الانسان الضعيف القلب ، يتشجع بغايتنا ،

فيغامر بالقيثارة والسيف .

فهو يذيع إرادتنا .

ويعلن سيادتنا ،

والمجاري التي يطؤها بأقدام محبته هي أنهار سائرة إلى بحر رغباتنا .

فنحن ، جالسين على اعالينا. نحلم احلامنا في نوم الانسان.

اننا نحث ايامه لتفارق وادي الشفق البعيد ، وتنشد كمالها على التلال .

وأيدينا تسيّر العواصف التي تجرف العالم ،

وتحمل الانسان من السلامة العقيمة إلى الجهاد المثمر ، ومن ثمت إلى الانتصار .

وفي أعيننا بصيرة نيّرة تحول نفس الانسان إلى لهيب ،

وتقوده إلى وحدة رفيعة ونبوءة ثائرة ،

ومن ثمت إلى الصلب .

فقد ولد الانسان للعبودية ،

وبالعبودية شرفه ومكافأته .

بالانسان نطلب علامة لما بنا ،

وبحياته ننشد كمال ذواتنا .

فـــاذا أخرس تراب الأرض قلب الانسان ، فأي قلبٍ يستطيع أن يرجع صدى صوتنا ؟

واذا عميت عيون الانسان بظلمة الليل . فمن يستطيع ان يرى لمعان مجدنا ؟

فماذا يجب أن نفعل بالانسان وهو ابن قلبنا الأول ، وهو صورتنا ومثالنا ؟

الاله الثالث

يا أخوي ، أيها الأخوان القديران ،
ان قدمي الراقصة الحسناء قد سكرتا بخمرة الانشاد ،
فأثارتا دقائق الهواء المرتعشة ،
وهي كالحمامة تحلق مرتفعة بجناحيها .

الاله الأول

القبرة تنادي القبرة ،
ولكن النسر يحوم فوقها .
وهي لا تتوقف لتصغي إلى الانشاد .
أنت تريد أن تعلنْ محبة الذات متكملة بعبادة الانسان .
وراضية بعبودية الانسان .
ولكن محبة ذاتي لا حدّ لها ولا قياس .

فأنا أريد أن أسمو على ما يموت مني في الأرض ،
وأتخذ لي عرشاً في السماوات .
فأمنطق الفضاء بذراعيّ ، وأحيط بالأفلاك .
وأريد أن اتخذ من المجراة قوساً ،
ومن المذنّبات سهاماً .
وباللانهاية أريد أن أحكم اللانهاية .
أما أنت فلا تريد ان تفعل هذا ولو كان في منالك .
فنسبة الانسان الى الانسان ،
هي كنسبة الآلهة إلى الآلهة .
وأنت تريد ان تحمل الى قلبي التعِب ،
ذكرى الأدوار المنقضية في الضباب ،
في حين أن نفسي نشدت ذاتها بين الجبال ،
وعينيّ تعقبتا صورتها في المياه الهاجعة
ولكن عروس امسي قضَت نحبها في أثناء ولادتها
فالصمت فقط يزور رحمها .
والرمال التي تقذفها الرياح ترضع ثديها .
فيا أمسي ، أيها الأمس المائت ، يا والد الوهيق المقيّدة ،
أيّ إله عظيم قبض عليك في طيرانك .
وأرغمك على الولادة في قفص ؟
وأية شمس جبارة بعثت حرارتها في بطنك لتلدني ؟
إني لا أباركك . ولكنني لا ألعنك ،
فكما أنت اثقلت كاهلي بأحمال الحياة ،

هكذا اثقلت أنا كاهل الإنسان .
بيد انني كنت أقل قساوة منك .
فأنا الخالد ، قد جعلت الانسان ظلا زائلا ،
أما انت ، المائت ، فقد خلقتني خالداً .
فيا أمسي ، أيها الأمس المائت ،
هل تعود مع الغد البعيد ؟
فأقودك الى المحاكمة ؟
وهل تستيقظ مع الفجر الثاني للحياة ،
فأمحو ذاكرتك العالقة بالأرض من الأرض ؟
أود لو أنك تقوم مع جميع الأموات القدماء .
حتى تختنق الأرض بأثمارها المريرة ،
وتنتن جميع البحار بدماء المذبوحين فيها ،
ويستنزف الويل فوق الويل كل ما في الأرض من الخصب الذاهب عبثاً .

الاله الثالث

يا أخوي ، أيها الأخوان القديسان .
قد سمعت فتاتنا الأنشودة الساحرة ،
وهي تفتش الآن عن المرنم ؛
وهي كالخشف في دهشة مسرّتها ،
ترقص فوق الصخور والجداول
فتديرها في جميع الجهات .

ما اجمل الغبطة التي ترافق المطالب المائتة ،
والعين التي تفتحها الغاية النصف المولودة .
ما احلى الابتسامة المرتجفة لِما ستتمتع به من الغبطة الموعود بها !
أيّة زهرة تساقطت من السماء .
أي لهيب ارتفع من الجحيم ،
فحمل قلب الصمت إلى هذا الفرح والخوف المقطع الأنفاس؟
أي حلم حلمناه على الأعالي .
أيّ فكر بعثناه في الريح ،
فأيقظ غفلة الوادي
وفتح عيني الليل ؟

الاله الثاني

انك قد أعطيتَ النولَ المقدس
واعطيت الفن لحياكة الثياب
فالنول والفن سيكونان لك إلى الأبد .
وسيكون لك معها الخيط الأسود والنور ،
ولك ايضاً الارجوان والذهب .
وأنت مع كل هذا تحوك من نفسك ثوباً .
قد نسجت يداك نفس الانسان من الهواء الحيّ والنار ،

وانت تريد الآن ان تقطع الخيط ،
وتطلق أصابعك الشعرية في الأبدية الخاملة .

الاله الاول

نعم نعم ، انني سأطلق يدي في الابدية التي لم تسبِّكْ في قوالبها بعد ،
وفي الحقول التي لم تطأها قدمٌ سأطلق قدميّ ،
فأية مسرة لي في سماع الأناشيد التي طالما سمعها غيري، التي تلتقط ذاكرة الأذن أنغامها قبل ان يسلمها النَّفس الى أمواج الهواء ؟
ان قلبي يحنُّ إلا ما لا يستطيع ان يتصوره ،
وانا لن ارسل روحي إلا الى عالم الغير المجهول الذي لا تقطن فيه الذاكرة ،
بربك ، لا تجربني بمجد فارغ ،
ولا تطلب لي تعزية بأحلامك أو أحلامي ،
لأن كل ما فيّ ، وكل ما في الأرض ،
وكل ما سيكون في الوجود، لا يقدر ان يستهوي نفسي.
فيا نفسي ،
ان وجهك صامت ،
وأشباح الليل نائمة في عينيك .
ولكن صمتك راعب ،
وأنت راعبة .

الاله الثالث

يا أخويّ ، أيها الاخوان الرصينان .
ان الفتاة قد وجدت المرنم .
فهي تنظر وجهه المحبوب .
وهي كالنمر تتخطر بخطوات ساحرة .
بين الدوالي والأسيجة المتموجة .
وهو ينظر إليها الآن في وسط أناشيد محبته .
أواه يا أخويّ ، أيها الاخوان الغافلان ،
هل هنالك إله آخر يتألم وقد حاكَ من آلامه هذا النسيج ،
القرمزيّ والأبيض ؟
أي نجم جامح قد أفلت هارباً ؟
ومن يفصل الليل عن النهار بسره ؟
ومن يضع يده على عالمنا ؟

الاله الاول

يا نفسي ، يا نفسي ،
أيتها الدائرة المحترقة التي تمنطقني بلهيبها ،
كيف استطيع أن أقود سيرك ،
وإلى أيّ فضاء أدير شوقك ؟

يا نفسي التي لا رفيق لها ،
انك في مجاعتك تصطادين ذاتك ،
وبدموعك تريدين ان تبرّدي عطشك ،
لأن الليل لا يجمع نداه في أقداحك ،
والنهار لا يحمل اليك أثماره
يا نفسي ، يا نفسي ،
أنت تحملين سفينتك إلى الشاطىء وهي مثقلة بأحمال الرغبات .
فمن أين تأتي الرياح لتملأ شراعك ؛
وأي مدٍّ فيّاض يقدر أن يحرك دفّتك ؟
ان مرساتك حاضرة وجناحيك على أهبة الطيران ،
ولكن السماء صامتة فوقك ،
والبحر الهادىء يهزأ بسكونك .
فأي رجاء ثمت لي ولك .
وأي تقلب في العوالم، أو تبدل في غايات، السماء سيطلبك.
هل يحمل رحمُ عذراء اللانهاية زَرْعَ منقذك ،
ذلك الذي هو أقدر من أحلامك ،
وستنقذكِ يدهُ من عبوديتك ؟

الاله الثاني

احبس صراخك اللجوج ،
وأنفاس قلبك الملتهب ،
لأن أذن اللانهاية صماء ،
وغافلة هي عين السماء .
فنحن كل ما وراء العالم وكل ما فوقه ،
وبيننا وبين الأبدية الغير المحدودة لا يوجد شيء
غير أهوائنا التي لم تتشكل ، وغاياتها التي لم تتكمل .
أنت تستهوي الغير المعروف ،
والغير المعروف ، المرتدي بالضباب المتحرك ،
انما يقطن في اعماق نفسك .
نعم ، في اعماق نفسك يضطجع منقذك نائماً ،
وهو يرى في نومه ما لا تراه عيناك المستيقظتان .
هذا هو سرّ كياننا .
فهل تعرض عن جمع حصادك ،
لتلقي بذارك بعجلة في اثلام أحلامك ؟
وعلام تبسط سُحُبك في الحقول الخربة .
في حين ان قطيعك يفتش عنك ،
وأنت عبثاً تجمع في خيالك ؟
فتأنَّ ، وامعن نظرك في العالم .
انظر إلى أولاد محبتك الغير المفطومين .

ان الارض هي مسكنك ، والأرض هي عرشك ،
وفوق أرفع آمال الانسان تقبض يدك على قسمته .
أنت لا تريد أن تتركه —
وهو الجاهد أن يصل اليك بمسراته وآلامه .
وأنت لا تحول عينيك عن الحاجة التي في عينيه .

الاله الأول

هل يضم الفجر قلب الليل إلى صدره ؟
أم هل يعبأ البحر بأجسام موتاه ؟
كالفجر تنهض نفسي في اعماقي —
عارية غير متحيرة .
وكالبحر الذي لا يستريح —
يطرح قلبي عنه النفاية الزائلة من الأرض والانسان :
انني لن أعلق بكل من يعلق بي .
ولكنني اريد ان اسمو إلى ذلك المتسامي فوق مـا تصل
اليه قوتي .

الاله الثالث

يا اخوي ، تأملا أيها الأخوان ،
ان روحين سائرتين الى النجوم قد اجتمعتا في الجوّ للحساب .
وهما تنظران الواحدة الى الأخرى بصمت وسكون .
ان المترنّم قد انقطع عن الغناء ،

ولكن حلقه الذي حرقته الشمس يرتعش بالأناشيد ،
ولرفيقته الراقصة قد سكن الرقص في أعضائها —
بيد انه لم ينم .
يا أخويّ ، أيها الأخوان الغريبان ،
ان الليل يشتد ادلهماماً ،
والبدر يزداد اشراقاً ،
وبين الغابة والبحر
تصرخ المحبة بأعلى الصوت تدعوكما وتدعوني الى قلبها .

الاله الثاني

يا لتفاهة الكيان ، والنهوض ، والاحتراق أمـام الشمس الملتهبة ، والحياة والمراقبة لليالي الاحياء —
كما تراقبنا عين الجوزاء !
يا لحقارة مجابهة الرياح الأربعة برأس مكلل رفيع ،
وشفاء أسقام الناس بأنفاس لا مد في بحرها ؟
ان الخيام جالس يخبط خبط عشواء أمام نوله ،
والخزاف يدير دولابه بعدم اكتراث ،
أمـا نحن ، الذين لا ينامون ، ويعرفون كل شيء ،
فقد أعتقنا من ظلمة الظن والتخمين .
فنحن لا نتردد ولا نمعن الفكر والنظر .
لأننا قد سمونا رفعة على جميع الأسئلة القلقة .

فلنعش مطمئنين ، ولنطلق طيور أحلامنا من أقفاصها .
وكالأنهار فلنسكب في البحر —
من غير أن تديرنا حافات الصخور ،
فاذا بلغنا قلب اللجة ، وابتلعتنا أمواجها ،
انقطعنا عن المجادلة والتأمل في مصير الغد ، إلى الأبد .

الاله الاول

أفٍّ من ألم هذا التكهّن الذي لا ينقطع ،
وهذا السهر السائر بالنهار إلى الشفق ،
والذاهب بالليل إلى الفجر ،
أفٍّ من هذا المدّ الذي يحملنا إلى الذكرى الدائمة ،
والنسيان الدائم ،
وهذا الزرع المتواصل لبذار الاقدار التي لا تحصد منها غير الآمال ،
وهذا الرفع الغير المتغير للذات من التراب إلى الضباب ،
لتحنّ إلى التراب ، ثم تسقط بحنينها إلى التراب ،
ثم لا يلبث أن يتضاعف حنينها فتنهض ناشدة الضباب ثانية .
أفّ من هذا القياس الذي يغير أوانه للزمان الذي لا يتغير .

وهل تحتاج نفسي الى أن تصير بحراً تزعج مجاريه بعضها بعضاً الى الأبد ،

أو جوّاً تتحول فيه الرياح المتحاربة الى زوبعة ؟

لو كنت رجلاً ، لو كنت عبيراً أعمى ، —

لكان في طوقي الصبر على كل هذا .

أو لو كنت الاله الأعلى، الذي يملأ فراغ الانسان والآلهة، لكنت اكتفي بذاتي .

ولكن أنا وأنت لسنا بشراً ،

ولا نحن بالعليّ الذي فوقنا .

ولكننا أشفاق (جمع شَفَق) لا تنقطع عن الظهور والزوال من أفق الى أفق .

وآلهة ، نمسك بالعالم ويمسك العالم بنا .

وقد قضى علينا أن ننفخ بالأبواق ،

ولكن الروح النافخة والموسيقى الخارجة من أبواقنا ليست منا بل تأتي من فوق .

لذلك تراني أرغب في الثورة .

اريد ان استنزف ما بي حتى أصير فارغاً .

أريد أن أبتعد عن بصيرتك ،

أريد أن أختفي من ذاكرة هذا الشاب الصامت ، الذي هو أخونا الأصغر ، الجالس قريباً منا يتأمل في ذلك الوادي ،

ومع أن شفتيه تتحركان ، فهو لا ينطق بكلمة .

الاله الثالث

اني أتكلم ، أيها الاخوان الغافلان .
اني أتكلم بالحقيقة ،
ولكنكما لا تسمعان غير حديثكما .
أطلب إليكما أن تنظرا مجدكما ومجدي ،
بيد انكما تتحولان ، وتطبقان أجفانكما ،
وتهزّان عرشيكما .
فيا أيها الحاكمان الراغبان في السيادة على العالم العلوي والعالم السفلي ،
أيها الإلاهان الاثنيّان اللذان لا ينقطع أمسهما عن حسد غده ،
أيها التّعِبَان من أثقال ذاتكما ، المهدّئان حدة غضبكما بالكلام ، والضاربان محاجرنا بالصواعق !
ليست مخاصمتكما سوى صوت القيثارة القديمة .
التي نسيت أصابع القدير نصف الضرب على أوتارها —
ذلك الذي الجوزاءُ عودُهُ والثريا صنُوجُه ،
وهو حتى في هذه الساعة التي تتمتمان وتدمدمان فيها يضرب على عوده وصنوجه ،
فألتمس منكما أن تصغيا إلى أنشودته .
انظرا ، رجلاً وامرأة ،
لهيباً مع لهيب ،

يذوبان وجداً وهياماً .
جذور ترضع ثدي الأرض الارجواني ،
وزهور من نار على صدر السماء .
ونحن الثدي الأرجواني ،
ونحن السماء الباقية .
ان نفسنا التي هي نفس الحياة ، نفسكما ونفسي ،
انما تقيم الليلة في حلقٍ ملتهب ،
مجللة جسم فتاةٍ طاهرة ، بثوب من الأمواج الثائرة .
ان صولجانيكما لن يغير هذه القسمة المعدة لنا ،
وهمومكما هي الطموح بعينه .
لأن هـــذا جميعه سيمحى من الوجود في هوى الرجل والمرأة .

الاله الثاني

وما شأن هذه المحبة بين الرجل والمرأة ؟
تأمل كيف ترقص الريح الشرقية بقدميها الرشيقتين ،
وتنهض الريح الغربية مترنمة بأنشودته .
انظر إلى محجتنا المقدسة جالسة على عرشها الآن ،
باستسلام روح تغني الى جسد يرقص .

الاله الأول

انني لن أحوّل عيني الى وهم الارض ،

ولن أنظر إلى اولادها في المهم البطيء الذي تسميه محبة .
وما هي المحبة ؟
سوى طبل مُقَنَّع يقود موكباً طويلاً من الريب اللذيذ.
إلى شكل آخر من الألم البطيء ؟
إنني لا أريد أن أنظر إلى هذا الوهم
وأي شيء تراه هناك —
إلا رجـــل وامرأة في الغابة التي نَمَتْ لتصطادهما في فخاخها ، وتعلمها انكار الذات —
وولادة المخلوقات لغدنا الذي لم يولد بعد ؟

الاله الثالث

أفٍّ من الألم الذي تجلبه المعرفة .
والقناع المظـــلم الذي وضعه تفحصنا وتساؤلنا على وجه العالم ، والاستنهاد الذي نوجهه في كل ساعة للصبر البشري !
فنحن نضع تحت حجرٍ شكلاً من الشمع
ثم نقول انه شكل من الطين ،
فليجد في الطين آخرته .
ونمسك بأيدينا لهباً أبيض ،
ثم نقول في قلوبنا ،
انه عبير ذواتنا يرجع إلينا ،
ونسمة نسمتنا الفالتة منا ،

وبعد ذلك نعمد مفتشين في أيدينـــا وشفاهنا عن المزيد من العبير .

فيا اخوتي ، آلهة الأرض
اننا وان كنا في أعلى الجبل ،
فنحن ما زلنا نسير إلى الأرض —
بواسطة الانسان الراغب في الساعـــات الذهبية التي في نصيب أخيه الانسان .
فهل تسلب حكمتنا الجمال من عينيه ؟
أم هل تخضع مقاييسنا أهواءه فتحملنا إلى السكون ، أو تقودها إلى مستوى أهوائنا ؟
ماذا تقدر أن تصنع جيوش أفكاركم —
حيث تجتمع المحبة بجيوشها الجرارة ؟
ألا ان الذين غلبتهم المحبة .
وسارت بمواكبها فوق أجسادهم من البحر إلى الجبل .
ومن الجبل إلى البحر ،
يقفون الآن ، وفي كل أوان ، متعانقين بحياء ووقار .
باجتماع أوراق زهور محبتهم يلتنشقون عبير الحياة المقدس.
وباتحاد نفوسهم يجدون نفس الحياة ،
وعلى اجفانهم ترتسم صلاة مرتفعة إلينا .
المحبة هي ليل منحن بوقار تحت خيمة مقدسة ،
وسماء قد تحولت إلى غابة ،
بل هي نجميع النجوم قد تحولت إلى حباحب .

نحن بالحقيقة كل ما وراء العالم وكل ما فوقه .
ولكن المحبة أبعد من أن تصل إليها أسئلتنا —
واسمى من أن تبلغ اليها انشودتنا .

الاله الثاني

أتطلب دائرة بعيدة ؟
ولا تهتم بهذا الكوكب الذي غرست فيه عزيمتك ؟
ليس في الفضاء مركز إلا حيث تزف النفس إلى النفس ،
ويكون الجمال شاهداً وكاهناً .
فتأمل وانظر الجمال مبعثراً حول أقوامنا ،
تأمل جيداً كيف يملأ الجمال أيدينا لينزل العار بشفاهنا .
ان الأبعد هو الأقرب .
وحيث يكون الجمال ، يكون كل شيء .
أواه أيها الأخ الحالم الرفيع ،
ارجع إلينا من عهد أرض الكآبة القاتمة !
حرّر قدميك من اللامكان واللازمان ،
واقطن معنا في هذه الطمأنينة الآمنة —
التي ابتنتها يداك وأيدينا حجراً فوق حجر .
انزع عنك ثوب خفقان قلبك ،
وكن رفيقاً لنا في السيادة على هذه الارض الفتية ، الحارة بجلال خضرتها .

الاله الاول

أيها المذبح الخالد !

هل تريد بالحقيقة إلها لضحيتك في هذه الليلة ؟
إذن فأنا قادم ، وبقدومي أقرب محبتي وألمي .
هنالك تقف الراقصة ، التي نُحِتَتْ من شوقنا القديم ،
والمرنم يصيح بأناشيدي في أمواج الريح .
وفي ذلك الرقص ، وفي ذلك الانشاد —
يموت إله قدير في أعماقي .
ان إله قلبي القاطن وراء ضلوع بشريتي ينادي إله قلبي المقيم في الهواء .
والهاوية البشرية التي طالما عطلت عليّ راحتي تصرخ إلى الالوهية .
والجمال الذي نشدناه منذ البدء يصرخ إلى الألوهية .
وفي اصغائي قد قست هذا الصراخ ،
وها أنا ألقي سلاحي .
فالجمال طريق يؤدي إلى الذات المقتولة بيد ذاتها .
فاضرب أوتارك .
انني مستعدّ للسير على الطريق .
فهي تمتد إلى فجر آخر .

الاله الثالث

قد انتصرت المحبة !
سواء أكانت المحبة بياضاً ناصعاً أو خضرة زاهية بجانب بحيرة ، أو كانت جلالاً وفخاراً في القباب الرفيعة ، أو كانت

في بستان حافل بالناس ، أو في صحراء لم تطأهـــا قدم الانسان ،
فالمحبة هي ربنا ومعلمنا في كل حال .
فهي ليست بالشهوة الزائلة في الجسد .
ولا هي فتات الرغبة المتساقط من مصارعـــة الرغبة للذات ،
كلا ، ولا هي بالجسد الحامل سلاحه على الروح .
لأن المحبة لا تعرف الثورة .
ولكنها تهجر طريق الأقدار القديمة لتسير إلى الغابـــة المقدسة ،
لترقص وتترنم بأناشيد أسرارها في آذان الأبدية .
المحبة شباب قد تحطمت قيوده ،
ورجولة قد تحررت من عناء الأرض ،
وأنوثة حارة بلهيب مقدس ، مشرقة بنور سماء أبهى من سمائنا .
المحبة ، ضحك بعيد في أعماق الروح .
المحبة ، حملة قديرة تسير بك إلى يقظتك .
المحبة فجر جديد على الأرض ،
ويوم لم تصل اليه لا عينك ولا عيني ،
ولكن المحبة قد وصلت إلى قدس أقداسه بقلبها الأعظم .
يا أخويّ ، يا أخويّ ،
ان العروس قادمة من قلب الفجر

لتلاقي عروسها القادم من الغروب .
وسيكون عرس في الوادي ،
ويوم اعظم من أن تدون حوادثه .
الاله الثاني
هكذا كان منذ أطلق الصباح الاول السهول
الى التلال والاودية ،
وهكذا سيكون إلى بعد المساء الاخير .
ان جذورنا قد انبتت الاغصان الراقصة في الوادي ،
ونحن أزهار عبير الانشودة المرتفعة إلى الاعالي .
فالخالد والمائت نهران توأمان يناديان البحر بغير انقطاع
وليس بين النداء والنداء فراغ قط ، إلا في الاذن .
فالزمان يزيد اصغاءنا ثقةً ،
ويضيف إلى رغباته .
ولا يخرس الصوت في المائت الغير المرتاب
أمـا نحن فقد تسامينا على الشكوك .
فالانسان هو ابن قلبنا الاصغر .
الانسان إله يرتفع الى الوهيته ببطء شديد ،
وبين مسرته وألمه ننام ونحلم أحلامنا .
الاله الاول
دع المرنم يترنم ، والراقصة تحرك قدميها .
ودعني اطمئن هنيهة .

ان نفسي تريد ان تستريح الليلة .
فقد يغلبني النوم ، وفي نومي أري عالماً أكثر نوراً من هذا العالم ،
فتأتي مخلوقات أبهى من مخلوقاتنا فتسترق طريقها الى فكري .

الاله الثالث

اني أنهض الآن فأجرد نفسي من حدود الزمان والمكان ،
وأرقص في ذلك الحقل الذي لم تطأه قدما انسان ،
وستتحرك قدما الراقصة مع قدمي ،
وسأترنم في ذلك الملإ الاعلى ،
وسيختلج صوت بشري مع صوتي .
سنعبر الى الشفق البعيد ،
فقد نستيقظ في فجر عالم آخر .
ولكن المحبة باقية
ولن تمحى اثار أصابعها
ان الكور المقدس متأجج بالنار ،
وكل شعلة تصعد منه هي شمس محترقة .
فالاجدر والاحكم لمصلحتنا —
أن نفتش عن قرنة صغيرة فننام في الوهيتنا الارضية
تاركين امر قيادتنا الى اليوم المقبل ،الى المحبة البشرية الضعيفة .

السابق

أمثاله وأشعاره

وضعه بالإنكليزية فقيد الشعر والفن

جبران خليل جبران

تعريب

الارشمندريت انطونيوس بشير

أنت سابق نفسك

أنت سابق نفسك يا صاح ، ومـا الأبراج التي أقمتها في حياتك سوى أساس لذاتك الجبارة . وهذه الذات في حينها ستكون أساساً لغيرها .

وأنا مثلك سابق نفسي ، لان الظل المنبسط أمـامي عند شروق الشمس سيتقلص تحت قدمي عند الظهيرة . وسيعقب هذا الشروق شروق آخر ، فيحدث ظلاً ثانياً أمامي ، ولكن هذا الظل عينه سيتقلص تحت قدمي أيضاً في ظهيرة أخرى .

منذ البدء ونحن سابقو نفوسنا ، وسنبقى سابقي نفوسنا إلى الابد . وليس ما حشدنا ونحشد في حياتنا سوى بذور نعدّها لحقول لم تُفلح بعد . نحن الحقول ونحن الزارعون . نحن الاثمار ونحن المستثمرون .

عندما كنتَ يا صاح فكرةً هائمةً في الضباب ، كنت هنالك فكرة هائمة مثلك ، فنشدتك ، ونشدتني ، فكانت من تشوقاتنا الاحلام ، والاحلام كانت زماناً بلا قيود ، والأحلام كانت فضاءً بلا حدود .

وعندما كنتَ كلمةً صامتةً بين شفتي الحياة المرتعشتين كنتُ أنا مثلك هنالك كلمة صامتة ؛ وما تلفظت الحياة بنا حتى برزنا الى الوجود وقلبانا يخفقان بتذكارات الامس والحنين الى الغد . وما الأمس سوى الموت مطروداً ، ولا الغد سوى الميلاد مقصوداً .

وها نحن الآن في يدي الله ، فأنت شمس منيرة في يمناه ، وأنا أرض مستنيرة في يسراه ، ولكن قوتك على الانارة ليست بأفضل من قوتي على الاستنارة .

وما نحن ، الشمس والارض ، إلا بداءةً لشمس أعظم وأرض أعظم ، وسنبقى بداءة الى الابد .

أنت سابق نفسك أيها الغريب العابر بباب حديقتي ، وأنا مثلك سابق نفسي ، ولو كنت أجلس في أظلال أشجاري وأبدو ساكناً هادئاً .

البُهــــلول

جــاء في قديم الزمان رجل من البادية الى مدينة الشريعة العظيمة ، وكان بهلولاً خيالياً . ولم يكن له من متاع سوى ثوبه وعصاه

فكان يطوف في شوارع المدينــــة ويتأمل في هياكلها وأبراجها وقصورها باعجاب واجلال ؛ لأن مدينة الشريعة كانت غايةً في الجمال .

وكان بين الآونة والأخرى يخاطب العابرين به مستفهماً عن مدينتهم وغرائبها ، فـلم يفهموا لغته ، كما انه لم يفهم لغة أحدٍ منهم .

وعند انتصاف النهار وقف أمام فندق فسيح الارجاء ، بديع الهندسة والاتقان ، وكان الناس يدخلون اليه ويخرجون منه من غير اعتراض

فقال البهلول في ذاته : « لا شك ان هذا مزار مقدس » ودخل مع الداخلين .

وشدّ مـا كانت حيرته عندما وجد نفسه في بهوٍ عظيم ، وكبراء القوم ، من رجال ونساء ، جالسون الى كثير من الموائد الانيقة ، يأكلون ويشربون ، والموسيقيون يشنفون آذانهم بأطرب العزف والغناء .

فقال البهلول إذ ذاك في ذاته : « قد ضللت ، فما هذه بالعبادة التي توهمت ، بل هذه مأدبة أعدها الامير لشعبه تذكاراً لحادث جلل » .

وفي تلك الدقيقة دنا منه رجل ، خُيل اليه انـه عبد الامير ، وسأله ان يجلس مع الجالسين ؛ فجلس . فقدمت اليه اللحوم ، والخمور ، والحلوى ، افخرهـــا وأشهاها ، فأكل هنيئاً وشرب مريئاً .

وعندما بلغ كفافه همّ بالانصراف ، ولكنه ما وصل إلى الباب حتى دنا منه رجل بادن متأنق اللباس فـــأوقفه .

فقال البهلول في نفسه : « لا شك ان هذا هـو الامير بعينه » ، فانحنى امامه وحياه بإحترام وشكره بلغة قبيلته .

أمـــا الرجل البادن فخاطبه بلغة المدينة ، قائلاً له : « يا سيدي انك لم تدفع بعد ثمن غذائك » .

فلم يفهم البهلول شيئاً ، ولكنه شكره ثانية من صميم قلبه . فتأمله الرجل البادن جيداً ، وبعد أن أمعن النظر في وجهه ملياً ، أدرك انه غريب عن المدينة ، وعرف من ثيابه الرثة انه فقير الحال وليس له مـــا يدفعه ثمن غذائه . فصفق منادياً ، فجاء على الفور أربعة من حراس المدينة ومثلوا بين يديه . فقص عليهم قصة البهلول . فالقوا القبض عليه في الحـــال ، ومشوا به اثنين اثنين الى جانبيه . أمـــا البهلول فكان يتأمل في ملابسهم المزركشة ، وهو يكاد يطير

فرحاً قائلاً في سره : « لا شك في ان هؤلاء من أشراف المدينة » .

فسار الحراس به إلى أن بلغوا دار القضاء ، فدخلوا الى قاعة المحاكمة . فرأى البهلول أمامه ، في صدر تلك القاعة ، رجلاً جليلاً ، جالساً على منصة عاليـــة ، تجلله المهابة ، وتزيده لحيته البيضاء المسترسلة على صدره هيبةً ووقاراً . فخُيل اليه انـــه الملك بعينه ، وطارت نفسه فرحاً لمثوله أمامه .

ثم بسط الحراس دعواهم إلى القاضي ، فعيّن القاضي محاميين ، واحداً ليدعي على البهلول ، وآخر ليتولى الدفاع عنه ، فنهض المحـــاميان الواحد تلو الآخر ، وأدلى كلٌّ بحججه .

أما البهلول فظن انهما يرحبان به باسم الملك ، فامتلأ قلبه بعواطف المنة ، ومعرفـة الجميل للملك ، وللأمير ، على كل ما جرى له .

وعند انتهاء المحاكمة ، حكم القاضي بما يأتي على البهلول : « يجب أن تكتب جريمته على لوحة ، وتعلق على صدره ، ثم يركب حصاناً عاريـــاً : ويطاف به في المدينة ، ويسير المزمرون والمطبلون أمامه » .

فنُفّذ الحكم في الحال ، وأركب البهلول حصاناً عارياً ،

وطيف به في شوارع المدينة ،وسار المزمّرون والمطبّلون أمامه. وكان سكان المدينة يتراكضون على سماع الأصوات ، فينظرون اليه وهو على تلك الحالة ، ويغربون في الضحك أفراداً وجماعات . وكان الأولاد يركضون وراءه من شارع إلى شارع زرافات زرافات .

أما البهلول فكان ينظر اليهم بعينين مشرقتين فرحاً ، والدهش آخذ منه مأخذه ، لأنه كان يعتقد ، ان اللوحة المعلقة على صدره ، انما هي وسام قدمه له الملك عربون بركته ورضاه عن زيارته ، وان ذلك الموكب ما سارَ إلا احتفاء بحضرته .

وحدث أنه فيما هو راكب والجمع يحشده ، رأى بينهم بدوياً من قبيلته ، فاختلج قلبه طرباً ، وهتف به بأعلى صوته قائلاً : « بربّك يا صاح ! أين نحن الآن ؟ أليست هذه المدينة التي يسميها شيوخنا مدينة رغائب القلب ، وشعبها الاريحيون الفياضون ، الذين يحتفون بعابر السبيل في قصورهم ، ويرافقه امراؤهم ، ويشرف ملكهم صدره بالنياشين ، فاتحاً له أبواب مدينته الهابطة من السماء ؟ »

فلم يقل البدوي الثاني كلمة قط ، ولكنه تبسّم وهزّ رأسه .

أما الموكب فاستمر في سيره . وكان وجه البهلول مرتفعاً أبداً والنور يفيض من عينيه .

المحبة

يقولون ان ابن آوى يشرب من الجدول الواحد الذي يشرب منه الأسد .

ويقولون إن النسر والشوحة ينقدان الجيفة الواحدة وهما متفقان متسالمان .

فيا أيتها المحبة العادلة ،

يا من كبحت جماح رغائبي بيدك القديرة ،

وحولت مجاعتي وعطشي إلى إباء وشمم ،

لا تأذني للقوي العزوم فيّ ، أن يأكل الخبز ، أو يشرب الخمر ، اللذين يستهويان ذاتي الضعيفة .

ذريني بالأحرى فأقضي جوعـــاً ، بل دعي قلبي يتلهب عطشاً ،

واتركيني أموت وأفنى ، قبل أن أمدّ يدي لقدح لم تملئيه أو كأس لم تباركيه .

الملك الناسك

ُخبّرت ان فتى يعيش في غابة بين الجبال ، وانه كان فيا مضى ملكاً على بلاد واسعة الأرجاء في عبر النهرين . وقيل لي أيضاً ، ان هذا الفتى قد تخلّى بملءِ اختياره ،عن عرشه وعن أرض أجداده ، وجاء ليستوطن القفار .

فقلت في نفسي : لأسعَين الى ذلك الرجل سعياً ، وأقف على ما في قلبه من الأسرار ، لأن من يتنازل عن الملك فهو بلا شك اعظمُ من المُلك ! ! !

فذهبت على الفور إلى الغابة حيثما كان قاطناً . فوجدته جالساً في ظلال سروة بيضاء ، وبيده قصبة كان ممسكاً بها كأنما هي صولجانه . فحييته تحية الملوك . وبعد أن ردّ التحية التفت اليّ وقال بلطف : « ما عساك تبتغي في هذا الغاب الأعزل يا صاحبي ؟ أجئت تنشد ذاتاً ضائعة في الأظلال الخضراء ، أم هي عودة إلى مسقط رأسك عند انقضاء شغل النهار ؟ »

فأجبته قائلاً : « إنني ما نشدتُ إلاك ، ولا شاقني إلا الوقوف على ما حدا بك إلى استبدال مملكتك الكبيرة بهذه الغابة الحقيرة ؟ »

فقال : « وجيزة هي قصتي ، فقـــد انطفأت فقاقيع غروري فجأة . واليك حكايتي :

بينما كنت جالساً الى نافذة في قصري، كان وزيري يتمشى مع سفير أجنبي في حديقتي . وعندما صارا على مقربة من نافذتي ، سمعت الوزير يتكلم عن نفسه قائلاً : « أنا مثل الملك أتعطش للخمرة المعتقة ، وأعشق جميع ضروب المقامرة ، ويثور بي ثائر الغضب كسيدي الملـــك » . ثم توارى الوزير والسفير بين الأشجار . ولكنهما مـا لبثا أن عادا بعد برهة ، وإذا بالوزير يتكلم عني في هذه المرة قائلاً : « ان سيدي الملك مثلي يُحسن الرماية ، ويتعشق الألحان ، وهو مثلي يستحم ثلاثاً في النهار » .

وسكت لحظة ثم زاد قائلاً : « في عشيّة ذلك اليوم تركت بلاطي ، ولا شيء معي سوى عباءتي ، لاني لم أشأ بعد ذلك أن أكون ملكاً على قوم يدعون نقائصي لأنفسهم ويعزون فضائلهم إليّ » .

فقلت له : « ما أغرب قصتك ، وما أعجب أمرك ! »

فأجابني قائلا : « ليس هنالك من غرابـــة يا صاحبي ، فقد قرعت أبواب سكينتي طامعاً منها بالكثير ، فلم يكن لـــك منها سوى اليسير . بربك قــل لي ، مَنْ لا يستبدل

مملكةً بغابةٍ تترنم فيها الفصول ، وترقص طروبةً أبداً ؟ كثيرون هم الذين تركوا ممالكهم ليستبدلوا بها ادنى مراتب الوحدة ، والتمتع بحياة العزلة السعيدة . وكم هنالك من نسور هبطت من جوها الأعلى ، لتعيش مع المناجذ في انفاقها الصامتة فتتفهم أسرار الغبراء ! بل ما أكثر الذين يعتزلون مملكة الاحلام لئلا يظهروا للناس انهم بعيدون عمن لا أحلام في نفوسهم ؛ والذين يعتزلون مملكة العُري ، ساترين عُرية نفوسهم ، حتى لا يستحي الأحرار من النظر الى الحق عارياً والتأمل في الجمال سافراً . وأعظم من هؤلاء جميعهم ، ذاك الذي يعتزل مملكة الحزن ، لكي لا يظهر للناس معجباً مفاخراً بكآبته » .

ثم نهض متوكئاً على قصبته وقال : « ارجع الآن الى المدينة العظمى ، وقف بأبوابها مراقباً جميع الداخلين اليها والخارجين منها . واعن بأن تجدَ الرجل الذي على رغم انه وُلِدَ ملكاً فهو بدون مملكة ؛ والرجل الذي على رغم انه مَسودٌ بجسدهِ فهو سائد بروحه — ولكنه لا يدري بذلك ، ولا رعاياه يدرون بسيادته — والرجل الذي يبدو للعيان حاكماً ولكنه في الحقيقة عبد لعبيد عبيده » . . .

وبعد ان فرغ من كلامه ، نظر اليّ ، فلاحت لي منه ابتسامة خلتها الفَ فجرٍ وفجر .

ثم تحول عني متغلغلا في قلب الغابة .

أما أنا فرجعت الى المدينـــة ، ووقفت بأبوابها أراقب العابرين بي ، على نحو ما قال لي . وما أكثر الملوك الذين مرت أظلالهم فوقي ، منذ ذلك اليوم حتى الساعـة ، وأقل الرعايا الذين مرّ فوقهم ظلي .

بنت الأسد

وقف أربعة عبيد يروحون بمراوحهم للملكة حيزبون كانت نائمة على عرشها تغط غطيطاً غليظاً . وكان في حضن الملكة هرة متكئة تموء وهي تنظر الى العبيد نظرة كره واشمئزاز .

فقال العبد الأول لرفقائه : ما أبشع هذه الحيزبون نائمة ، انظروا كيف تراخت شفتاهـا ، وهي تصعد أنفاسها كأنما الشيطان آخذ بخناقها . »

فموّت الهرة قائلة : « ان بشاعتها في رقدتها ليست جزءاً من بشاعتكم في عبوديتكم وأنتم مستيقظون . »

ثم قال العبد الثاني : « ومن الغريب أن النوم لم يلطف ملامح وجهها ، بل زادها تجعداً ، فهي ولا شك حالمة حلماً شريراً راعباً . »

فموّت الهرة قائلة لهم : « حبذا لو تنامون أنتم وتحلمون بحريتكم . »

فقال العبد الثالث لرفقائه أيضاً : « يلوح لي انها ترى في منامها موكب جميع ضحاياها الذين قتلتهم ظلماً وعدواناً . »

فموّت الهرة قائلة : « نعم فهي ترى مواكب أجدادكم وأحفادكم . »

ثم قال العبد الرابع : « مـــا أغباكم تتحدثون عن هذه الملكة وهي نائمة ، ومـــاذا يجديكم الحديث نفعاً أو يجديني ؟ ألعلّه يخفف عني نصيبي في وقوفي وعنائي في ترويحي لها ؟ »

فقالت الهرة وهي تموّي : « أجل ، انكم ستروحون الى دهر الداهرين ، لأنه كما على الأرض كذلك في السماء » .

وفي تلك اللحظة تحركت الملكة في نومها ، فسقط تاجُها على الارض . فقال واحدٌ من العبيد: «ان في ذلك لشؤماً! ».
فموّت الهرة وقالت : « مصائب قوم عند قوم فوائد . »

فقال العبد الثاني : « ماذا يحلّ بنا اذا أفاقت الآن من نومها ورأت تاجها ساقطاً على الارض والله انهـــا تذبحنا جميعاً !

فموّت الهرة قائلةً : « قد كانت تذبحكم منذ ميلادكم أيهـــا الاغبياءُ وأنتم لا تعلمون » .

وقال العبدُ الثالث : « انها ولا شك تذبحنا . وتعتبر انها بعملها هذا انما تقرب عبادة لآلهتها . »

فموّت الهرة قائلةً : « لا يُضحّى للآلهة إلا الضعفاء » .

أما العبد الرابع فأسكت رفقاءَه عن الكلام ، والتقط التاج بتأنٍّ ، ووضعه على رأس الملكة من غير أن يوقظها .

فموّت الهرة وقالت بصوت عـال : « الحق أقول لكم ، انه لا يلتقط التيجان المدحرجة، سوى العبيد » .

وبعد هنيهة استيقظت الملكة، وتلفتت حواليها متثائبة ، ثم قالت لعبيدها : يخيّل إليّ اني حلمت باني رأيت أربـع حشرات يطاردها عقرب حول جذع سنديانة جبارة . قبّحه الله من حلم مزعج . »

وأطبقت عينيها فنامت ثانية بعد ان ملأت القاعـة بغطيطها . فطفق العبيد الاربعة يروحون لهـا على جاري عادتهم .

أما الهرة فموّت قائلة لهم : « روّحوا ، روّحوا أيهـا العميان والاغبياء، فما أنتم تروحون الا ناراً تلتهم وجودكم ! »

الظلم مرتعه وخيم

هذه أغنية التنّينة التي تحرس كهوف البحر السبعة :

« سيأتي ڤريني راكباً على الأمواج ،

« وسيملأ الأرض رعباً بهديره العجاج ،

« وستندلع نيران منخريه في أقاصي الفضاء .

« عند كسوف القمر سأزف اليه ،

«وعند خسوف الشمس سألدُ جورجيوس آخر فيذبحني »

هذه أغنية التنينة التي تحرس كهوف البحر السبعة .

(١) كان عند قدماء الاشوريين اله له رأس انسان وجسم ثور واجنحة طائر ، وكانوا يرمزون برأسه عن الفكر، وبجسمه عن العزم ، وبأجنحته عن الخيال . وهذا ما عناه المؤلف بقوله : « قاعة الثيران المجنحة » .

القديس

زرت في حداثتي قديساً في صومعته الهادئة القائمة بين التلال ؛ وفيما كنا نبحث ماهية الفضيلة ، أطل علينا لص وهو يتمرج على الجانبين فوق الروابي ، والتعب قد أعياه . وعندما وصل إلى الصومعة ، جثا على ركبتيه امام القديس ، وقال له : أيها القديس الشفيق ، قد جئتك طالباً تعزية ، فان آثامي قد تعالت فوق رأسي . »

فأجابه القديس قائلاً : « يا ابني ، ان آثامي أنا أيضاً قد تعالت فوق رأسي . »

فقال له اللص : « عفوك يا سيدي ! فأنا سارق ، وقاطع طريق ، ويستحيل ان تكون مثلي . »

فأجابه القديس : انك واهم يا ابني ، فانني بالحقيقة مثلك سارق وقاطع طريق .

فقال له اللص : « ماذا تقول ياسيدي ؟ فانا قاتل ،ودماء الكثيرين من الناس تصرخ في أذني . »

فأجابه القديس قائلا : « وأنا أيضاً قاتل يا ابني ، وفي أذني تصرخ دماء الكثيرين . »

فقال له اللص : «يا سيدي ، أنا قد ارتكبت شروراً لا تحصى ، وجرائم لا عداد لهـــا ، فكيف تساوي نفسك بي وأنت رجل الله البارّ ؟ » .

فأجابه القديس وقال : « لو انك عرفتَ كثرة شروري لما ذكرت شرورك » .

فانتصب اللص إذ ذاك ، وحدق بالقديس طـــويلاً ، وملءُ عينيه دهشة وغرابة ، ومضى من غير أن ينبس ببنت شفة .

أما أنا فكنت صامتاً إلى تلك الدقيقة . فالتفتّ آنئذ الى القديس ، وسألته قائلاً : « مـــا دعاك الى أن تنسب لنفسك شروراً لم ترتكبها قط يا سيدي ؟ ألا ترى ، أن هذا الرجل ، قد مضى ولم يعد بعد من المصدقين بدعوتك والمؤمنين ببشارتك ! »

فأجاب القديس وقال : « اجل يا ابني ، فانك بالصواب حكمت ، بأنه لم يعد من المصدقين بدعوتي ، ولكن الحق أقول لك انه قد انصرف والعزاءُ يملأ فؤاده » .

وفي تلك اللحظة سمعنا اللص يغني من بعيـــد ، وكانت الاودية تردد صدى صوته الممتلىء بالمسرة والتعزية .

الطمع

رأيت في جولاني في الأرض وحشاً على جزيرة جرداء ، له رأس بشري ، وحوافر من حديد .

وكان يأكل من الأرض ، ويشرب من البحر بلا انقطاع . فوقفت أراقبه ردحاً ؛ ثم دنوت منه وسألته قائلا : « ألم تبلغ كفافك بعدُ ؟ أليس لجوعك من شبع أو لظمأك من ارتواء ؟ »

فأجابني وقال : « نعم ، نعم قد بلغت كفافي ، بل قد مللت الأكل والشرب ، ولكنني أخاف أن لا تبقى إلى غدٍ أرض لآكل منها وبحر لأرتوي من مائه » .

الذات العظمى

حدث بعد تتويج ُنفسيبَمل ، ملك جبيل ، انه انصرف إلى مقصورته، وهي الغرفة التي بناها له عرافو الجبل النساك. فنزع تاجه ، وخلع « برفيره » ووقف في وسط المقصورة ، مفكراً في عظمته المتناهية ، كملك جبيل الواسع السلطان ، في ذلك الزمان .

وكان في صدر تلك المقصورة مرآة مفضضة الاطـار ، أهدتها اليه أمه ، فالتفت اليها بغتة ، واذا برجل عارٍ قـد خرج منها وتقدم اليه .

فأخذ الرعب بمجامع قلبه ، وصرخ بالرجل قائلاً : «ماذا تريد أيها الرجل ؟ »

فأجابه الرجل وقال : « أودُّ شيئاً واحداً أيها الملك ، وهو ان تخبرني لماذا توجوك ملكاً على هذه البلاد ؟ »

فقال له الملك : « قد توجوني مليكاً عليهم لأنني أنبل رجل بينهم » .

فقال له الرجل : « والله لو كنت أنبل مما أنت لمـــا قبلت الملك » .

فأجابه الملك : « بل انما توجوني لأنني أشدّهم بأساً وقدرة . »

فقال له الرجل : « لو كنت بالحقيقية أشدهم بأساً لما قبلت أن تكون مليكاً عليهم » .

فقال له الملك : « ألا انما توجني شعبي لأنني أوفرهم حكمة . »

فأجابه الرجل قائلاً : « والله لو كنت اوفر حكمة مما أنت الآن لما اخترتَ أن تكون ملكاً . »

فسقط الملك حينئذ على الأرض وبكى بكاءً مراً .

أما الرجل العاري فكان ينظر اليه بشفقة وحنان ، آسفاً على جهله وغروره . ثم تناول تاج الملك المتدحرج على الأرض ، ووضعه بلطف على رأسه المنحني ، وعاد فدخل في المرآة كما خرج وهو ينظر إلى الملك برقة وحسرة .

أما الملك فنهض بغتة الى المرآة ، وتأملها جيداً ، فلم يرَ هنالك أحداً إلاّهُ وتاجه على رأسه .

الحروب والأمم الصغيرة

كان في أحد المروج نعجة وحمل يرعيان . وكان فوقهما في الجو نسر يحوم ناظراً الى الحمل بعينٍ جائعة يبغي افتراسه . وبينما هو يهم بالهبوط لاقتناص فريسته ، جاء نسر آخر ، وبدأ يرفرف فوق النعجة وصغيرها وفي أعماقه جشع زميله.

فتلاقيا وتقاتلا حتى ملأ صراخهما الوحشي أطراف الفضاء.

فرفعت النعجة نظرها اليهما مندهلة ، والتفتت الى حملها وقالت له : « تأمل يا ولدي ، ماأغرب قتال هذين الطائرين الكريمين ! أو ليس من العار عليهما أن يتقاتلا ، وهذا الجو الواسع كافٍ لكليهما ليعيشا متسالمين ؟ ولكن صل ياصغيري ، صلّ في قلبك الى الله ، لكي يرسل سلاماً الى أخويك المجنحين» .

فصلى الحمل من أعماق قلبه !

الناقدون

في عشية أحد الأيام ، كان المسافر راكباً حصانه وسائراً الى الساحل . فوّصل في طريقه الى فندق . فترجـــل وربط حصانه الى شجرة أمام الباب ، لانه كان واثقاً بالليل وبالناس شأن أقرانه المسافرين الى السواحل ، ثمّ دخل الى الفندق مع الداخلين .

وعند انتصاف الليل كان جميع من في الفندق نيامــاً . فجاءَ لص وسرق حصان المُسافر فلم يدر به أحد .

وفي الصباح نهض المسافر من نومه ، وجاء على الفور الى حيث ربط حصانه فــلم يجده . وبعد ان فتش عنه جيداً ، عرف ان لصاً سرقه في تلك الليلة ، فتأثر كثيراً على فقـــد حصانه ، ولكنه حزن بالاكثر على أن بــين الناس من يُغريه الشرُّ فيعمد الى السرقة .

وعندما عرف رفقاؤه المسافرون بمــا جرى له ، تجمعوا حواليه ، وبدأوا ينحون عليه باللائمة معنفين إياه .

فقال له الأول : « مــا أحمقك أيها الرجل ! لمــاذا ربطت حصانك خارج الاصطبل ؟ »

ثم قال له الثاني : « انني أستغرب كيف أنك لم تحجل (تقيّد) الحصان عندما ربطته . فما أوفر جهلك ! »

فقال الثالث لرفيقيه : « ان السفر الى البحر على ظهور الخيول غباوة من أساسه . »

وقال الرابع : « أما أنا فأعتقد انه لا يقتني الخيول إلا كل بليد بطيء الخطى . »

فدهش المسافر لبلاغتهم وفصاحتهم في الوعظ والارشاد ، بعد فوات الأوان . ثم قال لهم وهو يتميز غيظاً : « أيها الأصحاب ، عندما سرق حصاني جاءتكم الفصاحة عفواً ، فأسرعتم الواحد تلو الآخر تعددون هفواتي وزلاتي ؛ ولكن يدهشني كيف انكم ، مع ما أوتيتم من قوة البيان ، لم يقل أحد منكم كلمة عمن سرق الحصان ! »

الشعراء

كان أربعة من الشعراء جالسين الى خوان ، وكان على الخوان اناء من الخمر .

فقال الشاعر الأول : « يُخيّل إليّ اني أرى عبير هذا الخمر مرفرفاً في الفضاء ، كسحابة من الطيور في غياب مسحور . »

فرفع الشاعر الثاني رأسه وقال : « أما أنا فإني أسمع بأذني الباطنة ، هذه الطيور تغردُ فتأخذ ألحانها بمجامع قلبي . فتأسره كما تأسر الزنبقة النحلة بين وريقاتها . »

فأغمض الشاعر الثالث عينيه ورفع ذراعه وقال : « أما أنا فاني أكاد الامسها بيدي ، وأشعر بخفيف أجنحتها يهبُ في وجهي كأنه لهاث جنية نائمة . »

فنهض الشاعر الرابع إذ ذاك ورفع الاناء بيديه وقال : « عفوكم أيها الاخوان ! فاني ضعيف البصر ، ثقيل السمع ، كليل اللمس . فليس في طاقتي أن أرى عبير هذه الخمرة ، ولا ان أسمع غناءها ، ولا ان اشعر برفرفة اجنحتها ،

أواه ! انني لا أشعر بغير الخمرة ذاتها ، ولذلك يجب أن أشربها لتوقظ حواسي الخاملة وتشعل روحي بنار بركتكم العلوية ووحيكم الطهور » .

ثم وضع اناء الخمر على شفتيه واتى على آخر نقطة فيه .

أمـــا الشعراء الثلاثة رفقاؤه ، فكانوا ينظرون اليه بدهشة ، فاتحين اشداقهم ، وفي عيونهم غُلّة لا تروى لهبتها وبُغضة لا تخمد حدتها .

دوّارة الريح

قالت دوّارة الريح للريح : « قبحك الله ، ما أثقلك وما أملّك ! أليس في وسعك أن تهبّي في وجه غير وجهي ، أم ، ألا تعلمين انك بعملك هذا انما تعكرين صفو ثباتي الذي أعطانيه الله ؟ »

فلم تجب الريح بكلمة قط ، ولكنها ضحكت في الفضاء .

ملك أردوسة

مَثَل شيوخ مدينة « اردوسة مرة في حضرة الملك ، والتمسوا منــه امراً يقضي بمنع المسكرات في مدينتهم .

فلم يجب الملك سؤلهم ، بل ولاهم ظهرَه وتركهم ومضى ، ضاحكاً منهم في سره .

فانصرف الشيوخ من حضرته قانطين .

ولما بلغوا باب القصر رأوا وزير الملك . وكانهذا الوزير داهية ، فلحظ اضطرابهم وعرف قصتهم .

فقال لهم : « أواه أيها الأصحاب ، فان الحظ لم يسعدكم ، لانكم لو أتيتم الينا عندمـــا يكون ملكنا سكران ، لكنتم حصلتم في الحال على ما طلبتم !

طائر ايماني

من أعماق قلبي هبّ طائر ، وصعد محلقاً في الفضاء ، وكان كلما حلق في الجو ، أكثر فأكثر ، يزداد كبراً فكبراً . فبدأ أولاً كالخطاف ، ثم صار كالقبّرة ؛ فكالنّسر ، الى أن أصبح كسحابة الربيع اتساعاً ، فملأ السماوات المرصعة بالنجوم .

من أعماق قلبي هبّ طائر وحلق في الفضاء ، وكان يزداد حجمه كلما طار .

ومع ذلك فانه ظل ساكناً في أعماق قلبي .

●

فيا ايماني ، يا معرفتي الجامحة القديرة ،

كيف ابلغ الى سمّوك ، فأرى واياك ذات الإنسان الفضلى المرسومة على أديم السماء ؟

كيف احول هذا البحر ، الذي في أعماق نفسي ، الى ضباب كثيف ، وأهيم واياك في فضاء اللانهاية ؟

أو هل يستطيع السجين في ظلمات الهيكل أن يرى قباب الهيكل المذهبة ؟

أم هل للنواة أن تتمدد فتغلف الثمر كما كان يغلـّفها من ذي قبل ؟

أجـــل . يا ايماني الحليم ! أجل ، فاني مقيد بالسلاسل الحديدية ، في غيابات هذا السجن المحدود ، تفصلني عنك هذه الحواجز المصنوعة من اللحم والعظم ، وليس لي ان أطير معك الآن الى عالم اللامحدود .

بيد انك من قلبي تنبثق محلقاً في الفضاء الوسيع ، وأنت لا تزال قاطناً في أعماق قلبي الوجيع ، وإني بذلك لراض مستسلم قنوع .

الخلافات

حدث عندما كانت ملكة « عيشانا » في فراش مخاضها ، والملك وعيون بلاطه يترقبون نجاتها من آلامها الشديدة ، وهم جالسون على أحر من الجمر في قاعة الثيران المجنحة (١) أنـه دخل عليهم فجأة رسول مستعجل ، وركع عند قدمي الملك وقال : « أيها الملك المعظم ، انني أحمل اليكم بشائر الفرح للملكة ، ولعبيد الملك أجمعين ؛ وذلك ان محراب «الجائر» عدوك اللدود ، ملك « البترون » ، قد قضى نحبه . »

فلما سمع الملك وكبار رجال دولته هذه البشرى نهضوا منتصبين على اقدامهم ، وهللوا فرحين . لانه لو طال أجل محراب الجبار سنة واحـــدة ، لغزا أرض « عيشانا » وقاد سكانها عبيداً الى بلاده .

وفي تلك اللحظة دخل طبيب البلاط الى قاعة الثيران المجنحة ، ودخلت وراءه قابلة الملكة . فانحنى الطبيب احتراماً للملك وقال له : « ليعشْ سيدي الملك الى الابد ، فها قد رزقك الله طفلاً ذكراً ، سيخلفك على العرش ، ويخلد حكمك على شعوب عيشانا عديد السنين ! »

فتهلل الملك ؛ وطارت روحه فرحاً ، لانه في اللحظة الواحدة ، هلك عدوه ، وتأصلت الخلافة في نسله .

وكان في مدينة « عيشانا » في ذلك العهد نبي حق ، ولكنه كان فتى جريء القلب باسل الروح .

فأمر الملك أن يحضر النبي بين يديه في تلك الليلة ، فأحضر في الحال .

فقال له الملك : « تنبأ أيها النبي ، وقل لنا كيف سيكون مستقبل ابني الذي وُلد الآن للمملكة ».

فأجابه النبي على الفور قائلاً : « اسمع أيها الملك فأنبئك الصدق عن مستقبل ابنك الذي ولد لك اليوم : فان روح عدوك ... عدوك اللدود الملك محراب . الذي مات في مساء الامس ، لم تلبث على متن الارياح سوى ليلة واحدة . وقد هبطت الى الارض ثانية تطلب جسداً تأوي اليه ، فلم ترَ أفضل من جسد ابنك هذا الذي ولد لك اليوم ، فتقمّصته » .

فاستشاط الملك غيظاً ، واستلّ سيفـه ، وقطع رأس النبي بيده والزبد يخرج من فمه غضباً .

وها قد مرت الايام ، وتصرمت حبال السنين على تلك الحادثة وحكماء « عيشانا » يسرون واحدهم للآخر قائلين : « أما قيل لنا في القدم ، وأثبتت الأيام ذلك المقول ، ان « عيشانا » يحكمها عدوها ؟ »

المعرفة ونصف المعرفة

جلس أربع ضفادع على قرمة حطب عائمة على حافة نهر كبير . فجاءت موجة هوجـاء واختطفت القرمة الى وسط النهر ، فحملتها المياه وسارت بهـا ببطء مع مجرى النهر . فرقص الضفادع فرحاً بهذه السياحة اللطيفة فوق المياه ، لانه لم يسبق لهن أن أبحرن بعيداً من ذي قبل .

وبعد هنيهة صرخت الضفدعة الأولى قائلة : « يا لها من قرمة عجيبة غريبة ؟ تأملن أيتها الرفيقات كيف تسير مثل سائر الاحياء ..والله انني لم اسمع قط بمثلها ! »

فأجابتها الضفدعة الثانية وقالت : « ان هذه القرمة لا تمشي ، ولا تتحرك ايتها الصديقة ، وهي ليست عجيبة غريبة كما توهمتِ . ولكن ميـاه النهر ، المنحدرة بطبيعتها الى البحر ، تحمل هـذه القرمة معها ، وتحملنا نحـن أيضاً بانحدارها . »

فقالت الضفدعة الثالثة : « لا لعمري فقد أخطأتما أيتها الرفيقتان في خيالكما الغريب ، فان القرمة لا تتحرك ، والنهر ايضاً لا يتحرك ، وانما الحقيقة ان فكرنا هو المتحرك فينا ،

وهو الذي يقودنا الى الاعتقاد بحركة الاجسام الجامدة . »

وتناظر الضفادع الثلاث في مـــا هو المتحرك بالحقيقة . وحمي وطيس الجدال ، وعـلا الصراخ بينهن ولم يتفقن على رأي واحد.

ثم التفتن الى الضفدعة الرابعة ، التي كانت الى تلك الساعة هادئة صامتة تصغي اليهن بانتباه واستيعاب ، وسألنها رأيها في الموضوع .

فقالت لهن : كلكن محقات أيتها الرفيقات ، ولا واحدة منكن على ضلال ! فان الحركة كائنة في القرمة ، وفي النهر وفي فكرنا في وقت واحد . »

فلم يرق لهن ذلك الكلام ، لأن كل واحـــدة منهن كانت تعتقد انها وحدها المصيبة ، وان رفيقاتها لفي ضلال مبين .

وما أغرب ما حدث بعد ذلك : — فان الضفادع الثلاث تسالمن بعد العداء وتجمعن فرمين بالضفدعة الرابعة من على القرمة الى النهر .

الصحيفة البيضاء

قالت صحيفة ورق بيضاء كالثلج : « قد بُرئت نقية طاهرة وسأظل نقية الى الابد . وانني لأوثر ان أحرق ، واتحول الى رماد أبيض ، من أن آذن للظلمة فتدنو مني ، والأقذار فتلامسني . »

فسمعت قنينة الحبر قولها وضحكت في قلبها القاتم المظلم ، ولكنها خافت ولم تدن منها .

وسمعتها الاقلام أيضاً على اختلاف الوانها ولم يقربوها قط .

وهكذا ظلت صحيفة الورق البيضاء كالثلج — نقية طاهرة — ولكن . . . فارغة .

العالم والشاعر

قالت الحية للحسون : « ما أجمل طيرانك ايها الحسون ولكن حبذا لو انك تستطيع أن تنسل الى ثقوب الأرض وأوكارها ، حيث تختلج عصارة الحياة في هدوء وسكون . »

فأجابها الحسون وقال : « أي وربي . انك واسعة المعرفة بعيدتها ، بل أنت أحكم جميع المخلوقات . ولكن ، حبذا لو انك تطيرين . »

فقالت الحية كأنها لم تسمع شيئاً : « مسكين أنت أيها الحسون ، فانك لا تستطيع أن تبصر أسرار العمق مثلي ولا تقدر أن تتخطر في خزائن الممالك الخفية ، فترى أسرارها ومحتوياتها . أما أنا فلا أبعد بك ، فقد كنت في الأمس متكئة في كهف من الياقوت الأحمر . أشبه بقلب رمـــانة ناضجة ، وأضأل الأشعة تحولها الى وردة من نور . فمن أعطي سواي في هذا العالم أن يرى مثل هذه الغرائب ؟ »

فقال لها الحسون : « بالصواب قـد حكمت أيتهـا الحكيمة ، فلا أحد إلاّكِ يستطيع أن يفترش مـا تبلور من تذكارات العصور ، وآثار الدهور . ولكن وأسفاه فانك لا تغردين . »

فقالت الحية : « انني أعرف نباتاً تمتد جذوره الى أحشاء الارض . وكل من يأكل من تلك الجذور يصير أجمل من عشتروت » .

فأجابها الحسون قائلاً : « لا أحد ، لا أحد إلاكِ قد اهتدى الى سر القناع عن فكر الأرض السحري . ولكن واأسفاه ، فانك لا تطيرين . »

فقالت الحية : « وأعرف جدولاً أرجوانياً يجري تحت جبل عظيم . وكل من يشرب من هذا الجدول يصير خالداً خلود الالهة . وليس بين الطير أو الحيوان من اهتدى الى ذلك الجدول سواي . »

فأجاب الحسون وقال : « بلى والله ، فان في منالك أن تكوني خالدة مثل الآلهة لو شئت . ولكن وا أسفاه ! فانك لا تغردين . »

فقالت الحية : « واعرف هيكلاً مطموراً تحت تراب الأرض ، لم يهتد اليه باحث أو منقب بعد ، أزوره مرة في الشهر ، وهو من بناء جبابرة الأزمنة الغابرة . وقد نقشت على جدرانه أسرار جميع الأزمنة والأمكنة ، وكل من يقرأها ويفهمها يوازي الآلهة في العقل والمعرفة . »

فأجابها الحسون قائلاً : « بلى ، ايتها الحكيمة العزيزة . فانك لو شئت ، لاستطعت أن تكتنفي بلين جسدك جميع معارف الاجيال . ولكنك وا أسفاه لا تقدرين أن تطيري. »

فاشمأزت الحية إذ ذاك من حديثه ، وارتدت عنه الى وكرها ، وهي تبربر في ذاتها قائلة : « قبحه الله من غريد فارغ الرأس ! »

أما الحسون فطار وهو يغني بأعلى صوتـــه قائلاً : « وا أسفاه ، انك لا تغردين ! وا أسفاه ! وا أسفاه يا حكيمتي ! فانك لا تطيرين . »

الاثمان

كان رجل يحفرُ في حقله وفيما هو يحفر عثر على تمثال بديع من المرمر الجميل . فأخذه ومضى به الى رجل كان شديد الولع بالآثار والعاديات وعرضه عليه . فاشتراه منه بأبهظ الأثمان . ومضى كل منهما في سبيله .

وبينما كان البائع راجعاً إلى بيته أخذ يفكر في ذاته قائلاً : « ما أكثر ما في هذا المال من القوة والحياة ! انــــه بالحقيقة ليدهشني كيف ان رجلاً عاقلاً ينفق مالاً هذا مقداره ، لقاء صخر أصم فاقد الحركة ، كان مدفوناً في الأرض منذ الف سنة ولم يحلم به أحد ؟ »

وفي الساعة عينها ، كان المشتري يتأمل في التمثال مفكراً وقائلاً في ذاته : « تبارك ما فيك من الجمال ! تبارك ما فيك من الحياة ! حلمُ أية نفس علوية أنت ؟ هذه بالحقيقة نضارة أعطيتها من نوم ألف سنة في سكينة الأرض ! انني والله لا افهم كيف يمكن للانسان أن يبيع مثل هذه الطرفة النادرة بمال جامد زائل ؟ »

البحار الأخرى

قالت سمكة لأختها : « يوجد فوق بحرنا هذا بحر آخر ، وفيه مخلوقات متنوعة تعيش وتسبح هنالك كما نعيش نحن ههنا ونسبح . »

فأجابتها أختها وقالت : « تلك أوهام ! تلك أوهام ! ألا تعلمين أيتها العزيزة ان كل مخلوق يترك بحرنا قيد قيراط واحد ، ويبقى خارجاً عنه ، يموت في الحال ؟ اذن ، فما هي حجتك على وجود أحياء أخرى في بحار أُخرى ؟ »

التوبة

دخل رجل في ليلة ظلماء الى حديقة جاره ، فسرق اكبر بطيخة وصلت اليها يده وحملها وجاء بها الى بيته .

وعندما كسرها وجد انها عجراء لم تبلغ بعد نموها .

فتحرك ضميره في داخله اذ ذاك ، وأوسعه تأنيباً .

فندم على انه سرق البطيخة ...

المحتضر والشوحة

مهلاً ولا تلحي يا أختاه ، مهلاً
فعما قريب أترك لك هذه البقية التالفة ،
فانها تستفرغ صبرك بطول نزاعها .
انني أضن بجوعك أن يترقب تصرم هـــذه الهنيهات :
لأن هذه القيود ، وان كانت من اللهاث ، فـان كسرها لمسير . ان رغبتي في الموت وهي أبعـــد رغائبي ، مقيدة بسلاسل رغبتي في الحياة ، وهي أدنى رغائبي .
عفوك أيتها الرفيقة ، فانني متمهل بطيء .
هي الذكرى تمسك بروحي فتعيد اليها تذكارات مضت ، فتريها مواكب الأيام الذاهبة ،
ومرأى شباب غابر قضيته في حلم ،
وتشخص أمامي وجهاً يأمر اجفاني بألا تغمض ،
وتعيد الى مسمعي صوتاً لا يزال صـــداه متردداً في أذني ،
ويداً تلامس يدي ولا أراها .

●

عفوك أيتها الرفيقة فقد طال انتظارك .

ولكن ها قد دنت الساعة ، وكل شيء عـــابر زائل :
الوجه والعيون واليد ، والضباب الذي جاء بها .

ها قد حُلت العقدة ،

قد تقطّع الحبل ،

وذلك الذي ليس بالطعام ولا بالشراب قـــد تنحى
وراح .

تقدمي يا رفيقتي الجائعة ، تقدمي فقد أعدت المـائدة ،

والطعام حقيرٌ يسير ولكنه يُقدّم بمحبة .

هلمي واغرزي منقارك في جنبي الأيسر ،

واخرجي من بين قضبان قفصه هذا الطائر الأصفر ، الذي
لن يُرفرف جناحاه فيا بعد ،

بربك خذيه وحلقي به في رحاب الفضاء .

هلمي ، هلمي إليّ يا صديقتي ،

فأنا مُضيفكِ الليلة ، وأنتِ ضيفي العزيز ،فأهلاً ومرحباً.

وراء وحدتي

انّ وراء وحدتي وحدة أبعد وأقصى ،
وما انفرادي للمعتزل فيها سوى ساحة تغصّ بالمزدحمين ،
وما سكوني للساكنين فيها سوى جلبةٍ وضجيج .
انني حدِثٌ مضطربٌ هائمٌ بعدُ ، فكيف أبلغ الى تلك الوحدة القاصية ؟
ان ألحان ذلك الوادي تتموج في أذنيّ ،
وأظلاله السوداء تحجُبُ الطريق عن عينيّ ،
فكيف أسير الى تلك الوحدة العلوية ؟
— إن وراء هذه الأودية والتلال غابة حبّ وافتتان ،
وما سكوني لمن فيها سوى عاصفة هوجاء صمّاء ،
وما افتتاني لعاشقيها سوى الخداع وغرور .
انني حدِثٌ مضطربٌ هائمٌ بعدُ ، فكيف أبلغ تلك الغابة القدسية ؟
فإن طعم الدماء لا يزال في فمي ،
وقوس أبي ونشابه ما برحا في يدي ،

فكيف أسير إلى تلك الوحدة العلوية ؟

— ان لي وراء هذه الذات السجينة ذاتاً حرة طليقة ،

وما احلامي في عقيدتها سوى حرب في ظلام ،

وما رغائبي تجاه رغائبها سوى قرقعة عظام،

انني حدثٌ مهانٌ ذليل بعدُ ،
فكيف أكون ذاتي الحرّة الطليقة ؟

أجل ، كيف أكون ذاتي الحرّة الطليقة —

قبل أن أثأر لنفسي فأذبح جميع ذواتي المستعبدة ؛

أو قبل أن يصير جميع الناس أحراراً طلقاء ؟

إذن ، كيف تطير أوراقي مترنمةً فوق الريح —
قبل أن تذوي جذوري في ظلام الأرض ؟

بل ، كيف يحلّق نسر روحي طائراً أمام وجه الشمس —

قبل أن تترك فراخي عشّها الذي بنيته لها بعرق
وجهي ؟

اليقظة الاخيرة

في غلس الليل العميق ، وقد هبّ النسيم مُعطّراً بانفاس الفجر الأولى ، نهض « السابق » - وهو صدى الصوت الذي لم تسمع به اذنٌ بعد – فترك مقصورته وصعد الى سطح بيته. وبعد ان وقفَ هنالك طويلاً ينظر الى المدينة الهاجعة في سكينة الليل ، رفع رأسه ، وكأنما قد تجمعت حواليه أرواح أولئك النائمين المستيقظة ، فتح فاه وخاطبهم قائلاً :

« يا اخوتي وجيراني ، ويا ايها المارّون ببابي في كل يوم . انني أودّ أن أناجيكم في نومكم ، وفي وادي احلامكم ، أودّ أن أمشي مطلقاً عارياً ، فإن ساعات يقظتكم أشد غفلة من نومكم ، وآذانكم المثقلة بالضجيج كليلة صمّاء .

« لقد أحببتكم كثيراً وفوق الكثير .

« قد أحببت الواحد منكم كما لو كان كلكم ،

« وأحببتكم جميعاً كما لو كنتم واحداً .

« ففي ربيع قلبي كنت أترنم في جنانكم ،

« وفي صيف قلبي كنت أحرس بيادركم .

« أجلْ ، قد أحببتكم جميعكم ، جباركم وصعلوككم ،

أبرصكم وصحيحكم ، وأحببت من يتلمس منكم سبيله في الظلام، كمن يرقص أيامه على الجبال والآكام.

أحببتك أيها القوي ، مع ان آثار حوافرك الحديدية لا تزال ظاهرة في لحمي ،

« وأحببتك أيها الضعيف على رغم انك جففتَ إيماني ، وعطلت علي صبري ،

« أحببتك أيها الغني ، في حين ان عسلك كان علقما في فمي ؛ وأحببتك أيها الفقير مع انك عرفت عاري وفراغ ذات يدي .

« أحببتك ايها الشاعر المقلّد ، الذي يستعير قيثارة جاره ليضرب عليها بأصابعه العمياء ، احببتك كرماً ولطفاً ، واحببتك ايها العالم الدائبُ عمره في جمع الاكفان الرثّة من حقل الخزّاف الممقوت .

احببتك ايها الكاهن ، الجالس في سكون امسه متسائلاً عن مصير غدي ،

واحببتك ايها العابد الذي يتخذ له من اشباح رغائبه إلهة يعبدها .

« احببتك ايتها المرآة ، المتعطشة وكأسُها مملوءة ابداً ، لأنني عرفت سرّكِ . »

وأحببتك أيتها المرأة ، الساهرة لياليها ، مشفقاً عليكِ .

« أحببتك أيها الثرثار قائلا في نفسي : « انّ الحيـــاة كثيرا فتقوله . »

وأحببتك أيها الأبكم ، قائلا في سري : « حبذا لو أسمع نُطقاً يعبر عما في صمته . »

أحببتك أيها القاضي والناقد ، ولكنكما عندما رأيتماني مصلوباً قلتما : « ما الطف نزف دمائه من عروقه ، وما أجمل الخطوط التي ترسمها في مسيلها على جلده الناصع .»

« أجل . أحببتكم جميعكم ، فتاكم وشيخكم ،

وأحببت قصبتكم المرتجفة كسنديانتكم الجبارة الراسخة .

ولكن واأسفاه ، فان قلبي الطـــافح بحبكم قد حوّل قلوبكم عني ،

لأن في وسعكم أن ترتشفوا خمرة المحبة من القدح الصغير ، ولكنكم لا تقوون على شربها من النهر الفياض . »

« انـــكم تستطيعون ان تسمعوا صوت المحبة عندما تهمس في آذانكم .

ولكنكم تصمون آذانكم عندما تصيح المحبة مهلـلة بأعلى صوتهـــا .

وعندمـــا رأيتم انني قد أحببتكم جميعكم بالسوية ، تهكمتم قائلين : ما أسهل انقياد قلبه ، وما أبعد الفطنة عن مسالكه ! ان محبته هذه محبة متسول جائع، قد تعود التقاط

الفتات ، ولو كان جالساً الى موائد الملوك ، بل هي محبة ضعيف حقير ، لأن القوي لا يحب إلا الأقوياء » .

« وعندما رأيتم انني أحببتكم حباً مفرطاً قلتم : « ان محبته هذه محبة أعمى، لا يميز بين جمال الواحد وبشاعة الآخر بل هي محبة عديم الذوق، الذي يشرب الخل كأنه يشرب الخمر . بل انما هي محبة فضولي مدّع ، إذ أي غريب يستطيع أن يحبنا كأبينا وأمنا وأختنا وأخينا ؟ »

هذه أقوالكم وغيرها كثير . لانكم طالما أشرتم الي بأصابعكم في شوارع المدينة وساحاتها وقلتم بعضكم لبعض ساخرين :

« بربكم انظروا الصغير الكبير ، الذي لا يعبأ بالفصول والسنين ، فهو عند الظهيرة يلاعب أولادنا ، وعند المساء يجالس شيوخنا ، مدعياً الحكمة والفهم .»

أما أنا فكنت أقول في قلبي : « لا بأس في ذلك فاني سأحبهم أكثر ، نعم أكثر فأكثر . ولكني سوف أسدل على محبتي ستاراً من البغض ، واستر عطفي بشديد كرهي . وسأتبرقع ببرقع من حديد ، ولا أسعى وراءهم إلا مسلحاً مدرّعاً . »

« وبعد ذلك القيت يداً ثقيلة على رضوضكم وجراحكم وكما تعصف العاصفة في الليل رعدت في آذانكم .»

« ومن على السطوح قد أذعتكم للملأ فرّيسيين ، مرائين . خدّاعين ، وفقاقيع أرض كاذبة فارغة .»

« قد لعنت قاصري النظر فيـــكم كما تلعن الخفافيش العميـــاء ،

« وشبّهت الملتصقين بالارض والأدنياء منكم بالمنـــاجذ (جمع خلد)العادمة النفوس .»

« أما الفصحاء والبلغاء بينكم فدعوتهم متشعبي الألسنة ودعوت الصامت الساكن فيكم .متحجّر القلب والشفتين ، وقلت في البسيط الساذج : « ان الأموات لا يملّون الموت .»

« قد حكمت على الساعين وراء المعرفة البشرية منكم ومن أبنائكم كمجدّفين على الروح القدس .»

« وحكمت أيضاً على المأخوذين والمجذوبين بحب الارواح وما وراء الطبيعة كمصطادي اشباح ، يرمون شباكهم في مياه راكدة ، ولا يصطادون سوى أظلالهم البليدة .»

« كذا شهّرتكم بشفتي ، ولكن قلبي ، والدماء تنزف منه فكان يدعوكم بأرق الأسماء وأحلاها .»

« أجل ، ايها الاصحـــاب والجيران ، فان المحبة قد خاطبتكم مسوقة بسياط ذاتها ،

والكبرياء قد رقصت أمامكم متعفرة بغبار خيبتهـــ مذبوحة بآلامها ؛

وتعطشي لمحبتكم قد ثار ثائره على السطوح ؟ »

« ولكن محبتي كانت تسألكم صفحاً وهي راكعة صامتة »

ولكن اليكم المعجزة يا قوم !

« ان تستري قد فتح عيونكم ، وبغضي قد أيقظ قلوبكم »

والآن فأنتم تحبونني !

« انكم لا تحبون سوى السيوف التي تطعن قلوبكم ، والسهام التي تخرق صدوركم ؛

« لأنكم لا تتعزون إلا بجراحكم ، ولا تسكرون إلا بخمرة دمائكم . »

وكما يتجمع الفراش حول اللهيب ، ساعياً وراء حتفه ، تجتمعون انتم في كل يوم الى حديقتي ، وبوجوه مرتفعة ، وعيون شاخصة ، تراقبونني وأنا أمزق نسيج أيامكم ، فتتهامسوا فيما بينكم قائلين :

« انه يبصر بنور الله ، ويتكلم كأنبياء المتقدمين ، فيحسر القناع عن نفوسنا ، ويحطم أقفال قلوبنا ، وكما يعرف النسر مسالك الثعالب ، يعرف هو أيضاً طرقنا ومسالكنا .

« بلى ، فانني بالحقيقة أعرف طرقكم ، ولكن كما يعرف النسر طرق فراخه . وإنني بمسرة قلب ، قد كشفت لكم سري . ولكنني لحاجة بي الى قربكم ، أتظاهر بالجفاء ، وخوفاً مني على دنو قضاء محبتكم ، أقوم على حراسة سدود محبتي . »

وبعد أن فرغ السابق من كلامه ، غطى وجهه بيديه وبكى بكاء مراً ، لانه أدرك في قلبه ، ان المحبة المحتقرة في عريها ، لأعظم من المحبة التي تنشد الظفر في تسترها وتنكرها وخجل اذ ذاك من ذاته .

ثم رفع رأسه بغتة ، وكأنه أفاق من نوم عميق بسط ذراعيه وقال : « ها قد ولّى الليل ، ونحن أولاد الليل ، يجب ان نموت عندما يأتي الفجر متوكئاً على التلال ، وستبعث من رمادنا محبة أقوى من محبتنا ، — وستضحك في نورالشمس وستكون خالدة . »